## المحاضرة الثالثة

## حضارة بلاد الرافدين: تاريخها – الديانة والفنون – الفكر والعلوم.

**تمهيد**

تمثل حضارة بلاد الرافدين (ما بين النهرين) واحدة من أعرق الحضارات العالمية، وأغناها بالمنجزات في شتى المجالات، وربما أكثرها من حيث النصوص المكتوبة السالمة من الدمار. ولما كانت هذه الحضارة بهذا الاتساع والشمول، فإنه من الصعب الإحاطة بها في محاضرة من هذا النوع، وبناء على ذلك فسيكون التناول ضمن مجالات: الاستقرار من القرية إلى المدينة، والقوانين التي اشتهرت بها حضارة بلاد الرافدين، والثقافة والمكتبات.

**الاستقرار من القرية إلى المدينة**

منطقة بلاد الرافدين تقع جغرافيا على مساحة حوالي مائة وثلاثين ميل مربع، تمتد من حلب إلى بحيرة أرومية، وحتى مدخل شط العرب.و قد نمت هذه الحضارة في هذا المثلث حتى بلغت أوجها في عهد حكام: سومر وآشور وأكد.

إن المكتشفات الأثرية تدل على أن الإنسان ظهر في بلاد الرافدين منذ عصور مغرقة في القدم ، وترك آثارا منذ العصر الحجري القديم، فقد عُثر على أدوات مصنوعة من حجر الصوان تعود إلى العصر الحجري القديم في موقع (برده بلكه) الذي يبعد ميلا ونصف شمال شرق (جمجمال) الواقعة بين كركوك والسليمانية ، وتتألف المعدات من مكاشط مصنوعة من قشرة حجر الصوان وفؤوس يدوية، ومعدات أخرى.

ويبدو أن هناك اتصالا واضحا بين إنسان العصر الحجري في العراق،وإنسان العصر الحجري في سوريا وفلسطين، وذلك من خلال التشابه العميق الموجود في أدوات كل منهما التي عُثر عليها، وبالتالي يظهر لنا أن سفوح جبال زاخروس وحوض دجلة شمال العراق قد أصبحا مركزا لاستيطان المزارعين والرعاة في العصر الحجري الحديث منذ (5000) سنة قبل الميلاد، عاش خلالها إنسان ذلك العصر في قرى صغيرة بنيت بيوتها من الطين واستخدام الأدوات الحجرية، وكانت تجمعاته لا تزيد في حجمها عن حجم العشيرة أو القبيلة المتوسطة.

ثم ظهر بعد ألفي سنة تقريبا وخاصة في القسم الجنوبي من العراق مجتمع منظّم بشكل متقدم، ينقسم على أساسه الإقليم بين دويلات مدن متعددة لكل منها إله يحكم بواسطة أمير يختاره. وبدأت في تلك المدن تزدهر الزراعة التي تكفي لإعالة الكثير من الناس مما أدى إلى تفرغ عدد كبير من الناس إلى وظائف غير منتجة مثل الكهانة والفنانين والكتّاب، مما أدى إلى ظهور الكتابة واستخدامها في شتى مناحي الحياة، وتطور العمارة والنحت بدرجة عالية تجلت في المعابد التي كانت تعتبر مركز النشاط الأساسي في جميع المدن.

إن فترة ظهور المدن في العراق أقرب ما يمكن إلى العصر الشبيه بالتاريخي، ويقسم هذا العصر إلى خمسة أدوار طويلة يتميز كل منها بتجمع حضاري خاص يسمى باسم المكان الذي تم فيه تشخيص هذا التجمع لأول مرة. وهذه الأدوار هي على النحو التالي:

**1-دور حسونة (سامراء)**

يقع تل حسونة إلى الشمال من مدينة الموصل بمسافة22 ميلا، وهي تشكل مجموعة من الأطوار، فالمستوطنة الأولى تدل على تطور واضح عن المراحل الأولى من عهد إنتاج القوت، ويظهر ذلك من خلال العثور على المجارش وبعض الآلات الحجرية التي ربما كانت بمثابة الفؤوس وآنية الفخار، والجرار التي كانت تستخدم لخزن الحبوب. ويظهر من خلال المكتشفات أن الصيد كان يمارس بشكل واسع، وكانت بيوتها مكونة من ست أو سبع غرف، لكل بيت مرتبة في قاطعتين ممتدين حول فناء، وهي مشيدة من الطوب، وترصف الأرضية بخليط من الطين والتبن، واستخدمت محاجر الأبواب لتسمح بحركة الأبواب، ووجدت أفران طينية لعمل الخبز وكانت هناك مناجل مصنوعة من شظايا حجر الصوان لحصاد الحبوب، أما المعادن فلم يكن استخدامها قد بدأ بعد.

**2-دور حلف**

هو تل مرتفع يطل على نهر الخابور قرب رأس العين على الحدود التركية السورية، اكتشف في هذا التل مستوطنات حضارية متقدمة، فقد عُثر فيه على مجموعة من القرى التي يمكن تسميتها بالمدن الصغيرة، يوجد فيها شوارع مرصوفة وأبنيتها مدورة مع أسقف مقببة، وغرفها طويلة مما يدل على أن سكان حلف أتقنوا العمارة، وهي تعتبر أول حضارة في بلاد آشور.كما عثر في موقع حلف على آنية فخارية جميلة ذات لون برتقالي مزخرف بالأحمر والأبيض والأسود،

واستخدم سكانها الحيوانات الداجنة والحبوب والمغازل الدائرة مما يدل على صناعة المنسوجات، وبقيت الحجارة تستخدم لصناعة الآلات.

**3- دور العبيد**

هو اسم لموقع جنوب العراق وهو يوازي الحضارة الموجودة في شمال العراق مما يعني تكامل الأدوار التاريخية الحضارية في جميع أقسام العراق. ولعل أهم سمة مميزة لحضارة العبيد هي الفخاريات الملونة، وهي أقل جودة وجمالا من فخار حلف، وألوان الفخار تراوحت بين الأصفر والبرتقالي والأخضر استخدم في صنعها خليط معدني بني غامق، والرسوم المنقوشة عليها متكررة وكثرا ما تتعلق بالحيوانات والنباتات تدل على إفلاس المخيال لدى سكان تلك الحضارة. وفي هذه الحضارة ظهرت لأول مرة الصنابير بالإضافة إلى الكؤوس الشبيهة بالأجراس، والجرار ذات المقابض الشبكية، ومعظم الأدوات فيها مصنوعة من الطين مثل المسامير والمناجل الهلالية وتماثيل الآلهة، وتماثيل الرجال.

ومن خلال مكتشفات هذا الدور يمكن التعرف على معتقدات سكان هذه المنطقة حيث تشير التجهيزات التي توضع مع الموتى بوجود اعتقاد بحياة بعد الموت، وكذلك وجود الدمى الأنثوية المكونة من رأس إنسان، والأخرى التي برأس مشوه مما يشير إلى اعتقاد بوجود الأرواح الشريرة.

**4-دور الوركاء (أوروك)3200 -3100 ق م**

تقع أطلال الوركاء المسماة في التوراة (أريخ) في منطقة صحراوية، حوالي منتصف الطريق بين بغداد والبصرة، وقرب مدينة السماوة، وتتميز بوجود إلهين كبيرين هما(آن، أو آنو) إله السماء، وإلهة الحب (عشتار)*.

تميزت حضارة الوركاء عن غيرها بمجموعة مميزات أهما ظهور الكتابة الصورية، حيث وجد بها العديد من الكتابات الصورية التي تمثل ما يراد التعبير عنه، حيث ترسم قدم للتعبير عن الذهاب، ورأس رجل للدلالة على لفظة رجل، وهكذا.

ونقشت الصور على الخشب أو رسمت على الجلود أو على أوراق النباتات، ويبدو أن معظمها تحلل في تربة العراق ولم يبق إلا ما كتب على الرقم الطينية.

---

*- عشتار: إلهة الحب والجمال عند البابليين، يقابلها (إناتا) عنمد السومسريين، و(عشتاروت) عند الفينيقيين، و (أفروديت) عند اليونانيين، و(فينيس عند الرومان).

وظهر أيضا في حضارة الوركاء (الزقورة)* وهي صرح كبير مدرج سيطر على مدن بلاد ما بين النهرين التالية (أي التي تلت تلك الفترة).

وشهدت فترة الوركاء استبدال الأختام المنبسطة بالأختام الأسطوانية، وهي عبارة عن أسطوانة صغيرة مصنوعة من الحجر العادي. كما اخترع في هذه المرحلة عجلة الفخار التي جعلت الإنتاج كبيرا، إلا أنها كانت مسئولة عن ضمور فن النقش على الفخار الذي كان مزدهرا قبلها.

**5-دور جمدة نصر**

موقع بين بغداد وبابل امتازت باكتشاف فخار متميز، يتألف أغلبه من جرار كبيرة سميكة منقوشة بتصاميم هندسية وطبيعية ملونة بالأسود والأحمر أو باللون الأحمر فقط المضاف مباشرة إلى الفخار الأصفر، لهذا اعتبر هذا الفخار السمة المميزة لفترة حضارية سبقت عهود التاريخ مباشرة.

يمتاز دور جمدة نصر بأنه عهد انتشار حضاري ففي جنوب بلاد ما بين النهرين (بابل) كان النمو من القرى إلى المدن قد بدأ في أقصى جنوب البلاد (سومر) وبدأت التحسينات على أساليب الري، وبدأت المدن تنمو كذلك في وسط البلاد وشمال بلاد بابل. واستخدمت المعادن بشكل واسع ومتنوع في هذا الطور، فقد شملت الذهب والفضة والنحاس والرصاص، وعُثر أيضا على آلة من حديد في تطور هائل نحو استخدام هذا المعدن ( الحديد) وتطويعه في الاستخدامات المختلفة.

وظهر في هذه الفترة النحت بشكل واسع، وهو ما لم يكن مستخدما في الفترات السابقة، فتظهر في مكتشفات (جمدة نصر)منحوتات لأسود تهاجم ثيرانا، والأ[طال يصارعون أسودا، والخنازير هائجة، و لشياه خائفة مسالمة.

وبعد هذه الأطوار يبدأ في بلاد ما بين النهرين عصر السلالات أو عصر الكتابة أو العصر التاريخي، حيث بدأت الكتابة ووصلت إلينا قوائم بأسماء الملوك ونُبذ عن حضارة تلك الفترات التاريخية.

**القوانين**

---

*- الزقورة: جمع زقورات وهي أبراج هرمية متعددة الطبقات تعتبر في بلاد الرافدين صروحا دينية.

إن أهم ما يميز حضارة ما بين النهرين القديمة هو احترامها لحكم القانون، وأن ما يقرب من 100/95 من النصوص المدونة باللغة السومرية وقريبا من ذلك النصوص المدونة باللغة الأكدية تشير إلى العقود، وهي عبارة عن إيصالات وحسابات، إضافة إلى عقود من مختلف الأنواع ذات العلاقة بالممتلكات.

وقد طغى قانون حمورابي على غيره في بلاد الرافدين ، بل وبقي لفترة طويلة يعتبر أقدم مجموعة قانونية أمكن التعرف على معظم أجزائها مدونة على مسلّة من حجر الديوريت يبلغ ارتفاعها سبعة أقدام(2.45م) اكتشفت سنة (1901–1902م) من قبل البعثة الأثرية الفرنسية برئاسة (جاك دي مورجان)، وذلك في مدينة سوسا عاصمة بلاد عيلام القديمة، وفي أعلى الحجر نحت عائر يمثل إله الشمس (شمش) وهو يمنح القانون إلى الملك حمورابي.

يتكون قانون حمورابي من 282 مادة قانونية تسبقها عبارة ابتهالية يوضح فيها الملك عظمته وأهدافه السامية،ويقول فيها أنه قنّن القوانين الموجودة ليجعل العدل سائدا في البلاد، وليبيد أهل الشر والفساد، حتى لا يطغى القوي على الضعيف، ولكي يشرق العدل كالشمس فوق ذوي الرؤوس السود، ثم يسرد الملك حمورابي فضائله وأمجاده، ويعدد أعماله العسكرية والسلمية.

ويمكن تقسين مواد القانون إلى ثمانية أبواب وهي: إدارة العدالة، والأموال المنقولة، وملكية الأراضي، والتجارة، والأسرة، والأضرار، والعمل، والرقيق. ورغم أن القانون مشتق من العرف السومري إلا أنه مكتوب باللغة الأكدية.

ومن النماذج التي تضمنها القانون الذي أصدره حمورابي:

المادة(1)–" إذا اتهم رجل رجلا ورماه بتهمة القتل ولم يثبت ذلك عليه فإن متهمه يقتل".

المادة(153)–" إذا تسببت امرأة في موت زوجها بسبب رجل آخر فتوضع على الأوتاد".

المادتان(229–230)– إذا بنى بناء بيتا لرجل ولم يتقن عمله وانهار البيت الذي بناه وسبب قتل صاحب البيت يقتل ذلك البناء، فإذا تسبب بقتل ابن صاحب البيت يقتلون ابن البناء".

**الثقافة والأدب والمكتبات**

في عام 1849 استطاع هنري لايارد اكتشاف مكتبة (سنحاريب) في نينوى الملحقة بقصره فيها حيث شكلت المكتبة غرفتين كبيرتين كومت فيهما الرقم حتى ارتفاع قدم،كما اكتشف هرمز رسام عام 1852م مكتبة (آشور بانيبال) وكان مجموع ما عُثر فيهما (25)ألف رقيم أرسلت

جميعها إلى المتحف البريطاني، وقد اشتملت مكتبة آشور بانيبال على قسمين: الأول منهما عبارة عن الوثائق الأرشيفية مثل الرسائل والعقود والمخطوطات الاقتصادية والتاريخية، في حين يتألف القسم الثاني من الوثائق الملكية المتضمنة مواضيع أدبية ودينية وعلمية، و معضمها نسخ لرقُم سومرية وبابلية قديمة جرى استنساخها في نينوى بناء على طلب الملك الآشوري نفسه.

وتدل الرسائل الموجودة المحفوظة في أرشيف المراسلات الملكية على أن ملوك بلاد الرافدين كانوا متعطشين للثقافة وأنهم أشرفوا بأنفسهم على تنظيم عملية بحث واسعة النطاق عن المخطوطات القديمة، فمثلا أرسل آشور بانيبال شخصا يدعى"شادونا" إلى مدينة بارسيبا* ليتصيد الرُّقُم النفيسة المتوفرة في أرشيفها وأن يقوم باستنساخها.

وقد تنوعت العلوم التي كتبت على تلك الألواح الطينية الموجودة سواء الآداب أو الطب أو الرياضيات. ويرجع معظم الألواح الأدبية السومرية التي وصلت إلينا إلى عام 2000 ق م تقريبا.

وقد برع سكان بلاد الرافدين في الآداب ودونوا الكثير من الروائع الأدبية التي امتزج فيها الأدب مع الدين مع التاريخ ليشكلا جميعا قصصا أسطوريا لا مثيل لها فيما سبق من حضارات، ولعل أهم تلك القصص( أترخاسيس)، (نزول عشتار إلى العالم السفلي)(آدابا)،،(أنزو)،(إيثانا) و(ملحمة الخليقة)، (كلكامش)،... وهي جميعها وُجِدت على رُقُم طينية ونُشِرت أكثر من مرة باللغتين العربية والإنجليزية.

ولعل أهم تلك الأساطير هي أسطورة (كلكامش) وهي أطول وأعظم الأعمال الأدبية التي كتبت الأكدية المسمارية، وهي تروي حكاية بحث أسطوري عن الخلود. وملخصها:

يتضمن قيام شخص يُدعى كلكامش زعيم لمدينة (أوروك) بمغامرات شديدة يتعرف خلالها على صديقه (أنكيدو) الذي يخوض معه العديد من المعارك، ويكون العون الأساسي له في جميعها، إلا أن (أنكيدو) يمرض ثم يموت، مما يؤثر على (كلكامش) فيدفعه ذلك الأمر للبحث عن وسيلة للخلود، فيحاول مقابلة الرجل الخالد الوحيد (اوتنابشتي) الذي نجا من الطوفان وخلّدته الآلهة فيما بعد ليسأله عن سر الخلود، وبعد مغامرات طويلة وصل إليه والتقى معه، ونتج عن ذلك أن منحه (اوتنابشتي) نبات الشباب الذي فقده (كلكامش) في الطريق بسرقته من قبل الأفعى، وبعها يعود إلى وطنه (أوروك ) مليئا بالأحلام المحطّمة والأسى يفطر قلبه حزنا على ما حدث له.

---

*– حالياً بيرسْ أو بيرسْ نمرود، مدينة بابلية قديمة، جنوب غرب بابل في محافظة بابل، العراق